

النفحة الثانية عشرة: رَمَضَانَ شهر العلم والتعلم

إذا أراد أحدنا أن يتحدث عن رَمَضَانَ، فإن أول ما يجول في خاطره من مزاياه السامية أنه شهر القرآن، فالقرآن وسام رَمَضَانَ، وإذا أردنا أن نتحدث عن القرآن فإن أول ما يبرز من خصائصه أنه توج بالعلم، فكانت كلمة (اقرأ) مفتاح القرآن، وأول ما نزل منه على قلب الحبيب ﷺ.

ولا غرابة في ذلك، فالقوم الذين نزل عليهم القرآن كانوا يعيشون دوراً من أدوار الوهن العقلي واللونة المعرفية، ولا يدركون من المعرفة إلا نزرأ يسيراً عن الشاة والإبل والاستقسام بالأزلام وعبادة الأوثان، فالعلم هو التاج الذي وضعه الحق فوق رأس هذه الأمة، وكان مفرق طريق بين شريعة الإسلام وغيرها من الشرائع السماوية.

ولقد حثنا ربنا سبحانه وتعالى، ونبينا ﷺ في كثير من المواطن على العلم والتعلم، لأن العلم عنوان الحضارة وشعارها، ووسام الإيمان والعبادة، وسبب في نهضة البشرية وارتقائها، يقول النبي ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ أَخِيهِ كَرِبَةً مِنْ كَرِبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كَرِبَةً مِنْ كَرِبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ صِلْهُاً سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مَعْرِسِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَتَمَسَّ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا قَعَدَ قَوْمٌ فِي مَسْجِدٍ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا أَنْزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةَ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»⁽¹⁾.

ولاحظوا هذا المثل النبوي الرائع، الذي ضربه لمن أخذ ما جاء به النبي ﷺ

(1) رواه الترمذي، 195/5، رقم: (2945)، وله شواهد في البخاري ومستدرک الحاكم وابن

من الهدى والعلم وكيف يكون حاله، ومن أعرض عن هذا العلم والهدى يقول عليه السلام: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفخ الله بها الناس فشرّبوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (1).

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف هذه الأمة، أحرص الناس على تحصيل العلوم النافعة وتعليمها، وكانوا يحثون على تعلم العلم ويرغبون ويبشرون طالب العلم بخيري الدنيا والآخرة، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (لئن أخرج في شيء من طلب العلم أريد صلاحي وصلاح من أعود إليه، أحب إلي من صيام حول وقيام حول، لأن الشيطان قال لابن آدم: ليتك تعمل فيما علمت، فيبظنه عن العلم، ولو كان يُكتفى بعلم لاكتفى كلّم الله، وعنده الألواح فيها تفصيل كل شيء، وقد قال: ﴿قَالَ لَوْ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66].

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا رأى الشباب يطلبون العلم، قال: مرحباً بكم ينابيع الحكمة، ومصايح الظلمة، خلقان الثياب، جدد القلوب، جلس البيوت، ربحان كل قبيلة (2).

ويقول فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فإذا سمع العلم خاف واسترجع عن ذنوبه، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء، فإن الله تعالى لم يخلق على وجه الأرض بقعة أكرم على الله من مجالس العلماء.

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تعلموا العلم صغاراً تسودوا به كباراً، والعلم

(1) رواه البخاري، 42/1، رقم: (79).

(2) شعب الإيمان، لليهيقي 358/4.

مصباح الله في الأرض، فمن أراد الله به خيراً اقتبس منه، والملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك، وكل وعاء يضيق بما فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: إن استطعت فكن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فلا تبغضهم.

وقال الشعبي: لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لسمع حكمة، ما رأيت أن سفره ضاع.

وقال الإمام الشافعي رحمته الله:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

والله سبحانه وتعالى وضع لنا تصوراً دقيقاً، وأساساً ينهض عليها العلم وتقوم عليها ركائزه، وأول ركن وركيزة من ركائز العلم، هو التدبر والتفكير، وتمحيص المعرفة عندما تتلقاها، وفي هذا يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

فقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ الاقتفاء هو التتبع، و﴿مَا﴾ من أدوات العموم والشمول، أي لا تقتف ولا تتبع أي شيء دون علم وخبرة بكنهه وحقيقته، وهذه الكلمة لوحدها ترسم لنا منهجاً متكاملأ في الثبوت من كل خبر وظاهرة، أو قضية تداع قبل إصدار الحكم عليها تعليلاً أو تعقيباً، ثم نلاحظ أن الآية قد صبت الحساب على أدوات نقل المعرفة، وهي مدركات الإنسان، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ أو هي امتداد للمدركات، فهذه الوسائل وما عت سيحاسب عليها الإنسان يوم القيامة.

فأي منهج علمي في العالم يقيم للعلم وزناً، وللأمانة العلمية قداسة كمنهج القرآن هذا، إنه يربط بهذا المنهج بين القلب (الفؤاد) والعقل، فأَي انحراف في ظاهرة العقل خلال تلقي العلوم أو تلقينها يؤدي إلى نفور القلب وهيجانه، لأن

القلب مركز المراقبة، وهو أول من يقع عليه الحساب يوم القيامة.

ثم إن الإسلام يتفرد في هذا الصدد، يوم يدعوننا إلى الأخذ والتشبث بالعلوم النافعة التي تكون سبباً في صلاح البشر وسعادتهم، وهجر العلم الضار الذي يكون معولاً هادماً لهياكل الحضارات وأسوارها، وهذا الذي وجهنا إليه رسولنا الكريم ﷺ عندما كان يدعو الله تعالى فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها»⁽¹⁾، ويقول الحبيب ﷺ: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع»⁽²⁾.

هذا هو ديننا، دين يحترم الإنسان، ويقدر كرامته، دين يجعل أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً لمن قدم للبشرية علماً نافعاً، بشتى صنوفه وفنونه، وبمختلف صورته وألوانه، المهم أن يكون نافعاً للإنسان، وكذلك فإن الإسلام يتوعد بالعقاب الشديد والعذاب الأليم لمن سخر العلوم الإنسانية في هدر كرامة الإنسان وحرية، وجعل العلم سبباً في شقاء الأمة وتدهورها، وهذا ما نراه اليوم مع كل أسف، فإن علم الإنسان في عصرنا صنع القنابل الذرية، والقنابل العنقودية، واليورانيوم المخضب، والقاصفات، والراجمات والأسلحة الإشعاعية وغيرها من أدوات الهدم والخراب، أهذه حضارة؟ أهذه إنسانية؟ أهذا علم؟ لكن لم العجب، فإننا نتوقع أكثر من هذا ما دام العلم مفرغاً من عنصر الإيمان، متجرداً من مراقبة الله تبارك وتعالى.

ثم إن الله تبارك وتعالى لا يقبل يوم القيامة إيمان عبد ناشئ عن طريق التقليد والمحاكاة، إنما المعول على إيمان انبثق من معرفة قطعية بالمعتقد، ولذلك نجد القرآن قد استنكر على أولئك الذين جعلوا عقولهم حيسة في سجن التقليد الأعمى والتبعية المشؤومة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَأْتِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ سُبْحَانَ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا

(1) رواه مسلم، 4/2088، رقم: (2722).

(2) رواه ابن حبان في صحيحه، 1/283، رقم: (82)، وابن ماجه، 1/298، رقم: (925).

أَوْلُو كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [القمان: 21].

أرأيتم إلى هذا الاستدراك الرباني: ﴿أَوْلُو كَانَ أَبَاؤُهُمْ...﴾، عجباً لمثل هؤلاء أكرمهم الله بالعقل الفاحص، والفكر الحر، ثم يسلكون مسلك الأعمى المقلد أو الأبله الحائر فيجانبون الحق، ويخسرون الهداية.

ولذلك نجد مولانا ربيع جعل الإيمان (التوحيد) ثمرة من ثمار تحريك العقل والفكر (العلم) قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمّد: 19] فقدم العلم على التوحيد، وما ذاك إلا لأن صاحب العقل الحر، يقوده عقله وعلمه إلى مراتع الإيمان النظرة ورياض التوحيد، ومن هنا فإن الإلحاد في حقيقته شذوذ نفسي لا ارتباط له بمقاييس العلم وموازن المنطق السديد، وما أكثر الملحدين في زماننا، لقد ازدحمت بهم مناكب الأرض، واشتدت سواعدهم في عصرنا الحاضر اشتداداً مقيتاً، وأسعفتهم حضارة الغرب المادي بقوى كثيرة ونزعات الإلحاد التي تعلن كفرها بالله تعالى، أصبحت تنتظم في مواكب ومؤسسات ضخمة من المثقفين في الغرب والشرق، واستطاع هؤلاء بغزوهم الفكري والثقافي قذف مجتمعاتنا بجملة ليست بالقليلة من الأفكار العليلة، وهي أوهام سرعان ما نوقشت أن تنهار وتتلاشى، وهؤلاء القوم الذين داسوا كرامة عقولهم بنعال الإلحاد، يتحسرون وهم يتلظون في الجحيم، وتنطلق منهم صرخات الحسرة والندامة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ [المك: 10].

أيها الأحباب:

إن كثيراً من الجامعات والمؤسسات التعليمية، فشلت وأغلقت أبوابها يوم جعلت العملية التعليمية تلقيناً للمتعلم، تحشو فكره وعقله بمعلومات تجريدية ذهنية، لا تعلمه كيف يتم التفاعل خلال التعلم، وخاصة في الجانب التطبيقي العلمي، كما أنها بسبب التقليد المتوارث في المعلومات لا تمكنه من تطوير المعرفة والإتيان بشيء جديد ينفع الأمة، علماً أن العلماء في تاريخ الإسلام سلكوا غير هذا المسلك، إنهم استفادوا من حضارات ومعارف الآخرين، وبرز هذا عندما

ترجموا بعض العلوم الإغريقية وقدموها للمجتمع، لكن لم تقدم على علاقتها، إنهم نقلوها بغربال منطقي دقيق، نقدوها وهذبوها وزادوا عليها وطوروها، لم ينساقوا وراء حسنها وسيئها، إنما أخذوا الحسن وتخلوا عن السيئ فيها، وبهذا يكونون قد بلوروا للعالم منهجاً علمياً دقيقاً في نقل المعرفة وترجمتها والاستفادة من مكنوناتها، وهذا المنهج الذي حفزهم إليه الإسلام، تلقفه الغرب وجعله أساساً لنهضته، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترزح في دائرة مظلمة ومقلقة من الفقر والمرض والجوع، قام الرهبان وتلمذوا على أيدي علماء المسلمين في الأندلس وغيرها، وتعلموا اللغة العربية وآدابها، وراحوا يترجمون المخطوطات النفيسة التي خطها المسلمون من فلك وطب وفيزياء وكيمياء وهندسة وغيرها، فسطعت شمس مدنيتهم على أنقاض نجم حضارة آفلة...

أيها الصائمون الكرام:

لقد كان رمضان في حياة سلف هذه الأمة واحة رناء لاستلهاهم العلوم النيرة، ولم يكن للكسل والخمول والنوم، وتضييع الأوقات وهدر الأعمار كانوا ينظرون إليه على أنه محطة وقود تشحن إيمانهم، فتزداد همتهم في الترقى والنشاط والبحث والإنتاج، ودقة التفكير والنظر في ملك الله وتآلق الصنعة، مما أضفى عليهم لونا خاصاً ومكانة سامية في الأرض والسماء، لأنهم أجالوا العقل وأعملوا الفكر فكانوا أحصى الناس وأتقاهم، ولتدبر معاً بيان القرآن هذا، الذي يوضح لنا فضل العلماء بشتى اختصاصاتهم وعلومهم عندما يكونون من أهل البحث والتفكير والخشية، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ أَنْ اللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: 27، 28].

وخشيتهم من الله تعالى وإجاباتهم له، رفعت قدرهم وذكرهم في الملائكة الأعلى قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَحُّوا فِي الْمَجْلِسِ فَانْسَحُوا بِسَجِّ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١١﴾ [المجادلة: 11].

ما أجمل هذا البيان الرباني، والمشهد القرآني العجيب، الذي جمع بكلمات قلائل بين ما بث في منحنيات الأرض وسراييبها ومرتفعاتها من جبال وثمرات ودواب وأنعام، وبين ما دار وماز في حنايا وأقطار نفس الناس من عوالم خفية، وآيات عجيبة لكن بعرض القرآن المتألق الذي يرسم المشاهد الحسية، والملاحم الكونية بكلمات موجزة تقوم مقام الخط والريشة والصبغة واللون، ثم سرعان ما ترسم الصورة من خلال الجملة، ثم سرعان ما تنبض هذه الصورة وكأنها تموج بالحياة.

أيها الأحباب:

إن العالم الحق هو الذي يبلغ رسالة السماء ووحى محمد ﷺ، ولا يخشى في الله لومة لائم، لا ينظر إلى مدح المادحين ولا إلى قذح القادحين، إنما يجعل من الإخلاص قاعدة له ينهض عليها خلال دعوته إلى الله تعالى، بمنهج الحكمة الذي نشده القرآن وطبقه النبي محمد ﷺ، والحكمة تعني الصواب في القول والعمل، وتعني وضع الأمور في مواضع، ولا تعني أبداً التهور في المواقف بدعوى الشجاعة، كما أنها لا تعني التملق والنفاق بدعوى الحكمة والدبلوماسية، والعالم سوف يسأله الله على ما منّ عليه من علم ومعرفة، عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينعقد قدام عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه»⁽¹⁾.

كما أنّ القرآن الكريم حذّر وهدد أولئك الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب والحق، ويقلبون الحقائق أو يخفونها طمعاً في لعاعة دنيوية، أو أملاً في جاه زائل عند ذوي الجاه والملطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا

(1) رواه الترمذي، 612/4، رقم: (2417)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ [البقرة: 174].

يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه: (الناس ثلاثة: سامع فعاقل، وسامع فتارك، وسامع فعارف، ومن الناس حامل داء، ومنهم حامل شفاء، ومن الناس من إذا ذكرت الله عنده أعانك وأحب ذلك، وإن نسيت ذكرك، ومن الناس من إذا ذكرت الله عنده لم يعنك، وإن نسيتك لم يذكرك، فتواضع لله وتخضع، وخف الله يرفعك الله، وقل سلاماً للقريب والبعيد، فإن سلام الله لا يناله الظالمون، فإن رزقك الله علماً فابتغ إليه كي تعلم مما علمك الله، فإن مثل العالم الذي يعلم كمثل رجل حامل سراج على ظهر الطريق فكل من مرّ يستضيء به، ويدعو له بالبركة والخير، وإن مثل علم لا يقال به كغنم نائم لا يأكل ولا يشرب، وإن مثل حكمة لا تخرج كمثل كنز لا ينفع⁽¹⁾.

ويؤذني بعض الناس عندما يبتر نصاً قرآنياً يوضح فيه مولانا تبارك وتعالى من هو العالم الحق، وما هي صفاته، فالناس يقرؤون قوله تعالى مبتوراً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] وكان من الواجب علينا أن نقرأ الآية بكاملها لنرى من هم الذين يعلمون ومن هم الذين لا يعلمون، قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيئٌ مَأْتِنًا أَلَيْلٌ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: 19].

العالم الحق هو صاحب القلب الخائف الخاشع، الذي إذا جنّ عليه الليل تراه ساجداً وقائماً، يفيض قلبه برجاء مرهف وحساس برحمة الله تعالى، ويوجل ويخاف من عذاب يوم شديد، يستمد بالليل من عطاء السماء، ليتمكن خلال دعوته من إعطاء الخير والرشاد، وفاقد الشيء لا يعطيه، ومن لم يتزود بالليل فكيف يزود الناس بالنهار؟

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا لم يعمل العالم بعلمه استكف الجاهل أن يتعلم منه، لأن العالم إذا لم يعمل بالعلم لا ينفع العلم إياه ولا غيره، وإن جمع

(1) شعب الإيمان، لليهقي، 385/4.

العلم بالأوقار أي بالأحمال الثقيلة، لأنه بلغنا أن رجلاً في بني إسرائيل جمع ثمانين تابوتاً من العلم، فأوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء، أن قل لهذا الحكيم: لو جمعت مثله معه لا ينتفع به إلا أن تعمل بهذه الأشياء الثلاثة: أن لا تحب الدنيا فإنها ليست بدار المؤمنين، وأن لا تصاحب الشيطان فإنه ليس برفيق المؤمنين، وأن لا تؤذي المؤمنين فإنه ليس بحرفة المؤمنين.

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: الفقيه هو الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم.

هذه هي صفات العلماء الأخيار، الذين يؤثرون دون كلام، ويذكرون دون بيان نسأل الله أن يجعلنا منهم ويلحقنا بركبهم.

أخي طالب العلم:

العلم نور وضياء، وتحصيله يتحقق بشروط وسبل متعددة تعال معي لتتعرف عليها.

□ أولاً: تقوى الله تعالى:

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 178]

[282].

يا طالب العلم: أقبل على طلب العلم واستزد منه، بنفس تواقفة وقلب نير، وجنب نفمك مزلق الشيطان وأماكن العصيان، فإن هذه القلوب أوعية صافية شفافة، لا تقبل إلا ما كان مثلها، وعندما تكون تقياً لله تعالى يصبح الله هو معلمك، يفجر ينابيع الحكمة في قلبك فتنسب على لسانك، يروى أن الإمام الشافعي رحمه الله، شعر بضيق يوماً ما فسأل معلمه وكيعاً فأجابه جواباً وعلاجاً ترجمه هو بقوله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

□ ثانياً: العلم بالتعلم:

فما ولد أحد من بطن أمه عالماً، لأن العلم شيء مكتسب، بملازمة العلماء وسهر الليالي وكثرة القراءة وعدم تضييع الأوقات يحصل الإنسان على العلم، والنبي ﷺ يقول: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقہ بالتفقه، ومَن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء»⁽¹⁾.

يا طالب العلم:

زاحم العلماء بركبتك، فإن الله يحيي بحكمهم القلوب كما يحيي بالماء الأرض الميتة، واحرص على تنقيح العلوم في سهر الليالي، ولا تصرفك صوارف الدهر وفتن الزمان الليلية، وعن هذا يقول الإمام الشافعي:

سهرى لتنقيح العلوم أذلي
وصرير أقالمي على صفحاتها
وتمايلي طرباً لحل عويصة في
وأبيت سهران الدجا وتبيته
ويقول رحمه الله:

تعلم فليس المرء يولد عالماً
إن كبير القوم لا علم عنده
وإن صغير القوم إن كان عالماً
وليس أخو علم كمن هو جاهل
صغير إذا التفت عليه الجحافل
كبير إذا ردت إليه المحافل

□ ثالثاً: الصبر على طلب العلم:

طلب العلم يحتاج إلى صبر وجد ومثابرة، وتطبيق لكل ما يمليه المعلم والمربي من واجبات، دون ضجر أو تزمز، ومن رزق الصبر في طلب العلم فقد رزق خيراً كثيراً وعلماً نافعاً غزيراً، يقول الشافعي رحمه الله تعالى:

اصبر على مرّ الجفا من معلم فإن رسوب العلم في نفراته

(1) رواه الطبراني في الكبير وغيره، 395/19، رقم: (929)، وقال ابن حجر في فتح الباري:

ومن لم يذق مرّ التعلم ساعة
ومن فاتته التعليم وقت شبابه
وذاة الفتى واللّه بالعلم والتقى
تجرع ذل الجهل طول حياته
فكبر عليه أربعاً لوفاته
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

ولقد أوضح الإمام الشافعي لطلاب العلم أسباب تحصيل العلم بقوله:

أخي لن تنال العلم إلا بسة
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة
اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا رب

العالمين .

